الفصل الثامن

وصول الدكتور "رمضان"

ذات يوم من أيام آذار/ مارس ١٩٥٦، كان "غرهارد كيغل" أستاذ القانون يعقد إحدى "ساعاته المكتبية" الأسبوعية لذلك اليوم، وذلك بمكتبه بجامعة "كولونيا" الألمانية ... حين تقدم إلى باب المكتب رجل مهندم قصير القامة يلتمس نصحا بشأن أطروحته للدكتوراه.

obeikandl.com

وبعد السؤال عن التعليم الذى أحرزه الرجل، وافق "كيغل" على طلبه. أما "الرجل"، فكان "سعيد رمضان" الذى قدم نفسه إلى "كيغل" بأنه محام قاهرى وفد إلى أوروبا لدراسة القانون. وكان "كيغل" كريما معه، إذ عرف كأستاذ لا يخذل أحدا مطلقا لجأ إليه طالبا للمشورة، وبخاصة الطلبة الأجانب. وكان "كيغل" يشرف – فى المتوسط – على سبعة طلبة دكتوراه فى العام، حيث بلغ عدد من التجأ إليه للمشورة والنصيحة نحو ٤٥٠ طالب على امتداد مسيرته المهنية الطويلة. أما الجامعات الألمانية فلم تكن تشترط – عادة – عملاً بحثياً تمهيدياً للدكتوراه ... لذا، فما كان على المرء المتقدم لنيل درجة الدكتوراه إلا أن يكون حاصلا على درجة الماچستير أو ما يعادلها.

فى البداية، كانت لقاءات "رمضان" مع "كيغل" محدودة. وكان "رمضان" – الذى لم يكن حينها قد بلغ الثلاثين بعد – يبدو أكثر نضجا من كثير من طلبة "كيغل"،

obeikandl.com

وكان مدركا ما أراد الكتابة عنه تحديدا ... "الشريعة الإسلامية"، حيث شرع فى الأمر بحيوية ونشاط.

وعادة ما كان "رمضان" على سفر ... لذا، فقد خاله "كيغل" يعد الترتيبات لانتقاله النهائى للعيش فى أوروبا. وكان "رمضان" يطلعه على تحركاته هنا وهناك حيث كان يبعث إليه بخطابات وكروت "بريدية" من جنيف ودمشق والقدس ... إلخ. وبمضى الوقت، أدرك "كيغل" – ذلك الأستاذ الجامعى الدمث حلو المعشر – أن دافع "رمضان" الحقيقى لم يكن "الشريعة الإسلامية"، بل ... "الثورة".

لقد كان القرن التاسع عشر قرنا مأساويا للسواد الأعظم من بلدان العالم غير الغربى ... حيث غزا العديد من البلدان الغربية المسلحة باقتصاد قوى وأنظمة سياسية متطورة أراضى شاسعة من العالم وأخضعتها لسيطرتها. أما الشعوب

obeikandl.com

التى اعتبرت نفسها ذات يوم أكثر الشعوب تقدما وتحضرا على امتداد المعمورة، فسرعان ما اندحرت تحت وطأة قوة "الغرب" الحربية. فمن أقصى الشرق فى الصين إلى أقصى الغرب فى بلدان المغرب العربى، تم احتلال العديد من البلدان حيث أطيح بحكامها وأخضع رعاياها للحكم الأجنبى، إلا أن بلدان العالم الإسلامى كانت أكثر من ذاق ذل الاستعمار ووطأته ... العالم الإسلامى، ذلك العالم صاحب منارات الحضارة الساطعة التى تعود إلى القرن السابع الميلادى، حيث بسط الفاتحون العرب، تؤيدهم روح الإسلام، نفوذهم على امتداد البسيطة. أما الدين الجديد، فقد انتشر سريعا ليخلق ممالك احتضنت فلاسفة عظماء وعلماء وفنانين نابهين. إلا أنه ومع بواكير القرن العشرين، كان العالم الإسلامى – فى معظمه – رازحاً تحت حكم غير المسلمين ... فالنصارى قد بسطوا نفوذهم فى كل مكان، فتارة هم الإنكليز فى شبه القارة الهندية، وتارة هم الهولنديون فى إندونيسيا، وأخرى هم الفرنسيون فى شمال إفريقيا. ووحدها تركيا التى ظلت بمنأى عن الاحتلال إذ كانت مستقلة، إلا أن دولة الخلافة الإسلامية كانت قد أسقطت بها لتنتهج تركيا نهجا علمانيا سافرا.

وفى سعيهم لإدراك الأسباب التى أفضت إلى ذلك التدهور، خلص المسلمون إلى احتمالين اثنين ... أن النصارى قد توصلوا إلى أنظمة سياسية واقتصادية فاعلة لم تكن – بحال – لدى المسلمين، أو أن تكون التعاليم الإسلامية الحقة لا يتم تطبيقها من قبل المسلمين. ووحده الاحتمال الثانى هو الاحتمال المنطقى لدى كثير من المسلمين. لذا، فقد بذلت جهود لمعرفة كيف انحرف المسلمون عن جادة الصواب وتنكبوا الصراط المستقيم. أجل ... قد يكون الغرب أدخل تقنيات نافعة ومفيدة، إلا أن "أيديولوجيته" بات لزاما أن ترفض ... تلك الرؤية التى تبناها كثير من المسلمين وشاركهم إياها بعض من شعوب أخر. ففى الصين – على سبيل المثال – دعت

"حركة التعزيز الذاتي"[٧٣] إلى استدامة الوفاء لمناهج الفكر الصيني وأنظمته بالتوازي مع تبني التقنيات الغربية، لا سيما الأسلحة والعتاد. إلا أن السياق الثقافي الذي انبثقت في ثناياه تلكم التقنيات، فلم يتناول بالدراسة، ولم تتطرق إليه يد البحث ... ويقصد بالسياق الثقافي – ماهية الإطار الثقافي وحراكاته تلك التي أحاطت بمولد تلك التقنيات، فضلا عما يوحيه بشأن العلاقة بين الفرد والسلطة الحاكمة، سياسية كانت أم دينية.

وفي القرن التاسع عشر، شرع العالم الإسلامي يدخل في صراع حول تلك الأفكار. ففي بواكير القرن المذكور عمد بعض الباحثين والمثقفين من أمثال رفاعة رافع الطهطاوي المصري إلى الاشتباك مع الأفكار الغربية عن طريق تعريب الكتب والحض على إرساء وعي قومي وتثبيت أركان ذلك الوعي ... وهو ما مهد السبيل أمام الزخم السياسي والديني الأكثر انفتاحا لرموز من أمثال الإمام جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده – اللذين أصدرا جريدة دعت إلى العودة إلى المبادئ الإسلامية الأصيلة[٧٤] . ثم التقط ذلك الفكر جيل تال من الرجال من أمثال محمد رشيد رضا، الذي عزا ضعف العالم الإسلامي إلى جمود طبقة المثقفين وإخفاق المسلمين في التمسك بأهداب التعاليم الإسلامية الحقة. وقد أصدر رشيد رضا مجلة ذاع صيتها في أوائل القرن العشرين، إذ كانت مصدر إلهام للعديد من أبرز النشطاء السياسيين[٧٥] .

وحين أخذ القرن العشرون يغذ السير، انبثق مزيد من برامج سياسية أخرى عدت أكثر سفورا. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نعت الحركة الوليدة بالإسلاموية، فيما أطلقوا على معتنقيها لفظة "الإسلامويين". ووفقا لذلك النهج الفكري، فإن "الإسلامويين" يختلفون عن المسلمين التقليديين ... إذ يذهب الإسلامويون إلى توظيف الدين لخدمة أجنداتهم السياسية، إما عن طريق اقتراب ديمقراطي أو من

خلال اللجوء إلى العنف. اما الأتباع فمدفوعون بقضايا معينة مرتبطة بالإسلام مثل الحاجة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجتمعاتهم. أما "الإسلاموية"، فيكمن فى طياتها رفض للمجتمعات الغربية وقيمها – والتى ينظر إليها على كونها لا تتوافق ومقتضيات الدين الإسلامى. هذا، ويركن بعض المحللين السياسيين إلى تفضيل مصطلح "الإسلام السياسى" لنعت هذه الظاهرة.

إلا أن مفهوم "الإسلاموية" يعد مفهوما خلافيا ذا طبيعة جدالية كونه ينطوى على أن الإسلام – فى بواكير نشأته وتطور مسيرته – لم يكن مسيسا أو سياسيا. إلا أن الواقع الفعلى هو أن الإسلام، منذ إرهاصاته الباكرة، كان دينا ذا صبغة جامعة مانعة لم يتعارض قط والسلطة الدنيوية. كذا، فإن مصطلح "الإسلاموى" لذو إيحاءات ودلالات سلبية نظرا لاستخدامه عقب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ من اعتداءات وتفجيرات فى كل من نيويورك وواشنطن – رديفا لكل ما هو إرهابى.

أما إسلام القرن العشرين، فكان المعين الثرى للكثير من الزخم السياسى. فالنشطاء السياسيون عابرو القوميات ممن يزعمون بأنهم سدنة الدين الحق قد سعوا لفرض "نسختهم" من الإسلام على مسلمين ذوى جذور فى موقع بعينه قد تعارفوا، بمضى الزمن، على ممارسات وطقوس دينية مميزة. ومن ثم ما شاع من لباس بعينه، وحجاب للمرأة، والتضييق على تداول الموسيقى الغربية، وتحجيم دور المرأة فى المجتمع. وعادة ما يعمد أولئك النشطاء إلى التفسير الحرفى للقرآن ... وهو نهج يتغافل تلك الجدالات القانونية المعقدة التى تدوولت فيما بين الباحثين الإسلاميين على امتداد عقود وقرون. وبالمقابل، فقد خلص أولئك النشطاء إلى فكرة مستحدثة مفادها أن المرء – أياً من كان – بوسعه فهم القرآن وإدراك معانيه، لذا فإن طائفة الشراح التقليديين تضحى غير ذات موضوع إذ تفقد معناها، بل قد

تصبح ضارة ذات أثر تدميرى بغيض. ومن جهة أخرى، يرفض الاتجاه المذكور أفكارا حديثة أخرى، من أمثال النظر بعين الاعتبار إلى السياق التاريخى حين التصدى لتأويل نصوص قديمة. وبمثل ما يذهب كثير من الملتزمين بحرفية النصوص، فإن النشطاء الإسلاميين المعاصرين يعدون من قبيل التجديف والهرطقة ما يزعم من أن أحكاما بعينها كانت ذات اعتبار ووجاهة حين أنزل القرآن، إلا أنها – اليوم – تعد هامشية فيما يخص رسالته الرئيسية.

أما التنظيم السياسى الأكثر نفوذا، والخارج من عباءة ذلك النهج الفكرى، فهو حركة "الإخوان المسلمين"، والتى أسسها "حسن البنا" فى عام ١٩٢٨ ... وهو مدرس من مدينة المحمودية بمحافظة البحيرة. آنذاك، كانت مصر ما تزال خاضعة للحكم الكولونيالى البريطانى، إلا أنها كانت تواكب حركة العصر سراعا لتلحق بركب قطار التحديث و"العصرنة"، حيث عانت ظروفا اقتصادية واجتماعية قاسية عصيبة. أما القاهرة، فكانت قد شرعت تجارى موجة "التصنيع" السائدة، حيث شرع الفلاحون ينزحون من الريف إلى المدن ليواكب ذلك تفسخ فى التقاليد، إذ كانت الأعراف تمور مورا. هذا، وقد وقف "حسن البنا"، الذى كان يلتهم مجلة "المنار" التهاما مشدوها من هذا المزيج من القمع القومى والحراك الاجتماعى ذى الوتيرة المتنامية. لذا، فقد شرع "البنا" ينظم أفكاره ويدون بعض أفكار ورؤى خاصة به. وقد كانت كتابات "البنا" هجوما ضاريا على الوجود البريطانى فى مصر، كذا فقد كانت هجوما على اللاأخلاقيات والفكر المنفلت، وبخاصة تلك الأنماط التى فشت فى عاصمة البلاد. وقد كان الحل لدى "البنا"، كما كان لدى المثقفين ممن سبقوه من أمثال "رشيد رضا"، يكمن فى الإسلام. إلا أن ما جعل "البنا" فريدا ... كونه ناشطا سياسيا يخاطب عامة المصريين من البسطاء ... إذ كان خطابه "شعبيا". هذا، ولم يكن أعضاء تنظيم "الإخوان المسلمين" يرنون لأن

يصبحوا مثقفين على غرار جماعة علماء المسلمين، بل كان لهم جذور شعبية بأكثر مما كان لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، أو رشيد رضا. فعادة ما كان أعضاء التنظيم يرتدون لباسا غربيا، ويتسمون بخطاب عصرى يعمدون فيه إلى عبارات بسيطة وكلمات واضحة مبتعدين عن العبارات النمطية لخطاب العلماء التقليديين. إلا أن الأهم من ذلك قد تمثل فى إرسائهم لمنظمات غربية الطابع كالأحزاب السياسية، وجماعات الشباب (الطلائع)، والجماعات النسوية، والأجنحة شبه العسكرية. لقد أضحى "للإخوان المسلمين" دولة داخل الدولة، إذ كان بمقدورهم توفير ما عجزت الحكومة عن الاضطلاع به، الأمر الذى أتاح لهم قبولا وذيوعا فيما بين المنتمين للطبقة الوسطى فى العالم الإسلامى ... تلك الطبقة التى كان نجمها صاعدا آنذاك. كذا، فقد كان "الإخوان المسلمون" لسان حال الفقراء إلا أنهم كانوا دائما ما ينتقون زعاماتهم من طبقة "المتعلمين" المحبطة جراء إفقار البلاد والعباد الذين سيموا الخسف على أيدى البلدان الغربية. وبما أنه لا عرق يحده ولا جنسية، فقد امتد نفوذ التنظيم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ... من بلدان جنوب شرقى آسيا إلى بلدان الشمال الإفريقى.

"لم يكن الشيخ البنا كغيره من الشيوخ" ... هكذا استدعى محمد فريد عبد الخالق[٧٦] ذكرى مؤسس جماعة "الإخوان المسلمين"، وذلك فى لقاء جمعنى به فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة. واستطرد "عبد الخالق" قائلا: "إن البنا كان يصف الإسلام وصفا جديدا". وكان "عبد الخالق" يختلف إلى مؤتمرات "البنا" الحاشدة فى صغريات المدن، ثم – لاحقاً – فى القاهرة، حيث انضم إلى الجماعة فى بواكير نشأتها ليترأس "قسم الطلبة" عام ١٩٤٢، وينشط فى الهيئة التأسيسية عام ١٩٤٤، التى أضحى اسمها "مجلس شورى الجماعة" لاحقا. وقد كان ثمن هذا النشاط غاليا إذ أمضى "عبد الخالق" ١٢ عاما وراء قضبان السجون

المصرية. وقد سمع "عبد الخالق" الإمام "حسن البنا" فى احتفال إسلامى بمدينة "إيتاى البارود" بمحافظة البحيرة حيث ذكر أنه "منذ سمع الإمام البنا فى هذا الاحتفال تغير وجدانه وانقلب تفكيره حيث وجد ضالته فى جماعة قربت المسافات بين الالتزام الدينى والواجب السياسى، وفى رجل يقودها له طريقته التى تميزه عن مشايخ الدين وعلمائه، رغم أنه أحدهم، كذا فقد كان له أسلوبه السياسى المميز والخلاب الذى اختلف اختلافا شاملا عن كلام رجال الأحزاب والسياسة الذين تجمعهم المصالح وتفرقهم الواجبات".

أما منهج "البنا" فى استمالة الآخرين وجذبهم إلى طريقته فتمثل فى قيامه بتحديد مشكلة بعينها فى مجتمع ما، ثم الشروع فى إيجاد حلول لها. فالجماعة قد تساعد فى بناء مسجد جديد أو مدرسة، أو قد تطور من صناعة محلية ... الأمر الذى يفضى إلى إقناع الآخرين بأن جماعته، جماعة "الإخوان المسلمين" هى تنظيم يسعى إلى إيجاد حلول لأية مشكلة، وبأن أفراد الجماعة هم أناس مخلصون أوفياء مكرسون لخدمة المجتمع. أما الأعضاء الجدد الذين يتم إلحاقهم بالجماعة، فكان يتم اختيارهم مباشرة من المساجد أو المقاهى والأسواق.

وما أشبه الليلة بالبارحة ... فكما اليوم، كانت السياسة - آنذاك - أمراً ذا حساسية فى ربوع القطر المصرى. لذا، كان "البنا" حريصا على أن يطلق على جماعته لفظة حركة "الإخوان المسلمين"، متجنبا إطلاق صفة الحزبية عليها. إلا أنه أضحى شديد الانخراط فى السياسة، حيث وقف فى وجه الملكية التى كانت قد تواطأت مع المحتل البريطانى ... وهو الأمر الذى عجل بأول صدع فى تاريخ الحركة، تحديدا فى عام ١٩٣٩، حين عمدت جماعة "شباب محمد"[٧٧] إلى الانشقاق عن الحركة، إذ آمن أفراد تلك الجماعة المنشقة بأن "الإخوان المسلمين" يجب أن تكون جماعة رفاه خيرية ترفض "تسييس" الإسلام. أما جماعة "الإخوان المسلمين"

فقد شرعت - آنذاك - توآزر "جمال عبد الناصر"، الذى سيقوم - لاحقاً - وتحديداً فى الثالث والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٥٢، بالتعاون مع زمرة من ضباط أطلقوا على أنفسهم اسم "الضباط الأحرار" ... بانقلاب عسكرى أطاح بالملكية فى مصر.

هذا، وقد ذهبت جماعة "الإخوان المسلمين" فى مصر أشواطا بعيدة إلى الحد الذى قبلت معه أموالا من العملاء النازيين. فوفقا لمستندات تحصل عليها البريطانيون فى بواكير الحرب الكونية الثانية، فقد حصلت جماعة "الإخوان المسلمين" على مبلغ ألفى جنيه مصرى من الصحافى الألمانى "فيلهلم شتيلبوغن" - مدير وكالة الأنباء الألمانية والمقرب من الجالية الألمانية بالقاهرة. هذا، وقد استخدم هذا التمويل النازى فى تأسيس "التنظيم الخاص" لجماعة "الإخوان المسلمين"، وهو نظام تراتبى شبه عسكرى ... فلم يكن مفهوم الجماعة الدينية ذات الجناح العسكرى غريبا مطلقا عند "حسن البنا"، إذ أظهرت "الجماعة" نفسها، منذ البداية، على أنها تنظيم شعبى يمكنه النزول إلى الشارع وحشد التظاهرات، بل والقيام بمناوشات قتالية.

وقد آمن "البنا" برسالة القرآن التى تذهب إلى أنه لا انفصال بين الدولة والدين، وهو ما وجد تعبيرا عنه فى شعار "الجماعة" الشهير: "الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا". ويصرح "البنا فى رسالة " بين الأمس واليوم": "إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: نحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام، نحن لا نعرف انفصال الدولة عن الدين".

وفى رسالة أخرى له يقول: "اسمع يا أخى: دعوتنا أجمع ما توصف به أنها

إسلامية، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذى يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شئون الحياة جميعا، ويفتى فى كل شأن منها، ويضع لها نظاما محكما دقيقا، ولا يقف مكتوفا أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لابد منها لإصلاح الناس. فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، وحصروا أنفسهم وأفهامهم فى هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور. ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شئون الدنيا والآخرة".

أما فى رسالة "نحن والسياسة"، فيقول "البنا": "إن "الإخوان المسلمين قوم سياسيون ودعوتهم دعوة سياسية، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى، ولا ندرى إلى متى تتقارض أمتنا التهم وتتبادل الظنون وتتنابز بالألقاب، وتترك يقينا يؤيده الواقع فى سبيل ظن توحيه الشكوك؟

أيا قومنا: إننا نناديكم ... والقرآن فى يميننا، والسنة فى شمالنا، وعمل السلف الصالح من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام ... فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا فنحن أعرق الناس والحمد لله فى السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

يا قومنا: لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق، ولا الأسماء عن الغايات، ولا الأعراض عن الجواهر، وإن الإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة. وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلا فسوسوا أنفسكم، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية، ولتعلمن نبأه بعد حين. والواقع أن غير المسلمين

حينما جهلوا هذا الإسلام، أو حينما أعياهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه، ورسوخه فى قلوب المؤمنين به، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ... لم يحاولوا أن يجرحوا فى نفوس المسلمين اسم الإسلام ولا مظاهره وشكلياته، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشورا من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغنى من جوع ... فافهموا المسلمين أن الإسلام شىء والاجتماع شىء آخر، وإن الإسلام شىء والقانون شىء غيره، وإن الإسلام شىء ومسائل الاقتصاد لا تتصل به، وإن الإسلام شىء والثقافة العامة سواه، وإن الإسلام شىء يجب أن يكون بعيدا عن السياسة. فحدثونى بربكم أيها المسلمون إذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة، فما هو إذا؟! ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية: استغفار يحتاج إلى استغفار. لهذا أيها المسلمون نزل القرآن نظاما كاملا محكما مفصلا تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين".

إنه لقاء وعظى جرت وقائعه عام ١٩٤٠ ... حيث كان اللقاء مناسبة رأى فيها سعيد رمضان الإمام حسن البنا للمرة الأولى. وعقب كل تجمع كذلك المشار إليه، كان البنا يطلب إلى الحضور ارتقاء المنصة، وكأنما كيمين ولاء للجماعة. وبعد توالى خمسة لقاءات كتلك أو نحو ذلك، عزم سعيد رمضان على ارتقاء المنصة ... ذلك الفتى ذو الأربعة عشر ربيعا، آنذاك، والذى لم تكن قامته قد تجاوزت حدود المتر ونصف المتر إلا قليلا، وإن عوض ذلك جسم قوى البنيان صقلته ممارسة الرياضة وتدريبات المصارعة.

"بالله ماذا أخرك عنا؟" ... كانت تلك أولى كلمات الإمام له – الإمام الذى كان مدركاً طيلة كل ذلك الوقت أن المرء الذى سيرعاه ويتعهده لهو بين تلك الصفوف.

لذا، فما كان من الإمام سوى الانتظار حتى يتقدم من انتظره طويلا خطواته الأولى.

لقد كانت تلك قصة طالما حرص سعيد رمضان على أن يسردها على مسامع أصدقائه ومعاونيه. إن حسن البنا، وفقا لرمضان، عادة ما كان يتم النظر إليه على كونه رمزا سياسيا فحسب. لذا، كان رمضان يقول عنه إنه رجل ذو جانب صوفي روحاني فضلا عن جانبه السياسي، إذ كان حريصا على أن يرقد بالمقابر ليلة من كل شهر ليذكر نفسه بمصيره المحتوم. أما مريدو البنا ورمضان وأتباعهما فعادة ما كانوا يشددون على قوة الرجلين البدنية. إذ كان البنا يقود أعضاء الجماعة أثناء التدريبات الرياضية متبنيا في ذلك الأفكار الغربية الذاهبة إلى كون البدن والعقل على الدرجة ذاتها من الأهمية دون رجحان لكفة على الأخرى. أما رمضان ... بجسده النحيل وقامته القصيرة التي لم تتعد – وهو بالغ – حدود الـ ١٦٨ سم ... فكان يحظى باحترام جم، أعزى بعضه إلى بنيانه القوي ونشاطه الموفور. وأما عن قسماته، فكان ذا عظام فك بارزة قوية تحيطها لحية مشذبة، فيما كانت عيناه رقيقتين ذواتا عمق ... لذا، فدائما ما كان رمضان محور أحاديث عن جاذبيته وحضوره الطاغيين في أي محفل شوهد به.

ووفقاً لداود صلاح الدين خلال مكالمة هاتفية أجريتها معه وهو في العاصمة الإيرانية طهران في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ ... "كان سعيد رمضان قويا للغاية من الناحية البدنية". وداود صلاح الدين هذا هو أمريكي من أصول إفريقية اعتنق الإسلام، كان قد التقى رمضان في واشنطن في عام ١٩٧٥ . واستطرد صلاح الدين ليقول: "إن ما جعلني أشعر بمدى جاذبية رمضان هو أن المرء نادرا ما يرى أناسا ذوي مكانة ثقافية كتلك التي ميزت الرجل يتمتعون ببنية قوية وقوام رياضي. فرمضان كان بطلا رياضيا منذ نعومة أظفاره... كذا، فقد كان

يتمتع بكاريزما طاغية. أجل ... فحين تلقى شخصا بوسعه التحدث قائما لساعات ثلاث، فحتما سيكون صاحب قوة بدنية هائلة".

وكما كانت عادة مجايليه من ذوى التوجه الغربى، كان سعيد رمضان غالبا ما يرتدى بزة غربية ورباط عنق محتفظا بلباسه العربى التقليدى لمناسبات بعينها. كذا، فإن حديثه قد اتسم بنفاذه إلى صلب الموضوع مباشرة ... فضلا عن حرصه الدائم على النظر إلى عينى محدثه.

وعقب لقاء رمضان بالبنا، أضحى الرجل ناشطا بجماعة "الإخوان المسلمين"، حيث أسهم فى تنظيم المؤتمرات الحاشدة. وكان رمضان قد درس القانون فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) التى تخرج فيها عام ١٩٤٦ ليصبح محاميا. وفى العام ذاته، اختاره حسن البنا ليكون سكرتيره الشخصى، كذا فقد زوّجه كبرى بناته (أم أيمن). أما فريد عبد الخالق، فيقول عنه: "إنه كان خطيبا مفوها ذا كاريزما بادية ... إنه رجل المهام الصعبة".

أما الروايات الخاصة بنشاطه فى فلسطين فتتباين تباينا جليا ... إذ ذهب البعض إلى القول بدوره المحورى الذى اضطلع به فى الدفاع عن القدس ضد قوات العدوان الإسرائيلى، فيما ذهب بعض آخر إلى أنه قد اضطلع فقط بتنظيم جناح لشباب الإخوان هناك. هذا، وقد كتب آخرون عن إنشائه لفرع جماعة "الإخوان المسلمين" فى الأردن، حيث أشرف على جهود الإخوان خلال حرب عام ١٩٤٨، فكان أن منحه ملكها، آنذاك، الملك عبد الله الأول جواز سفر استخدمه لسنوات طوال.

إلا أن النشاط السياسى المكثف لجماعة "الإخوان المسلمين" كان يعد تهديداً من قبل العديد من الحكومات، آنذاك. لذا، فقد قامت الحكومة المصرية بحظر الجماعة

عام ١٩٤٨ ليرتحل بعدها سعيد رمضان إلى باكستان الوليدة. وعقب عودة رمضان إلى مصر عام ١٩٤٩، تم اغتيال حسن البنا فى الثانى عشر من شباط/ فبراير. أما رمضان، الذى كان ما يزال صغيرا، حينذاك، لخلافة حميه الراحل، فقد استمر فى نهجه التنظيمى بالخارج.

وفى لقاء جمعنى بالأخ الأصغر للبنا – وهو جمال البنا – فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة، ذهب جمال إلى القول بأنه "إذا كان لدى جماعة الإخوان المسلمين هيكل وزارى قوامه وزراء عدة، لكان سعيد رمضان وزيرا للخارجية. لقد كان رمضان ذا لسان ذلق طلق، خطيبا مصقعا يجيد العربية ويتحدث الإنكليزية ... كذا، فقد كانت له علاقات واسعة ومعارف شتى بداخل البلاد وخارجها". هذا، وقد كان جل نشاط سعيد رمضان موجها نحو "التنظيم أو الاجتماع الإسلامى". ولم يكن الهدف ضربا من مصالحة مسكونية أو توافق ثيولوجى فيما بين الفصائل الإسلامية المتناحرة على الدوام ... بل كان، فى المقابل، هدفا سياسيا. فمن الوجهة النظرية، يجب أن يحكم المسلمين خليفة ... حاكم دنيوى يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية وإنفاذ مقتضياتها فى إطار ضرب من حكومة دنيوية. إن السلطان العثمانى وحيد الدين محمد السادس، آخر الخلفاء فى دولة الخلافة التى هوت ... كان مقر حكمه فى اسطنبول، إلا أنه قد خلع عن الحكم عام ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين، وإلى يومنا هذا، يرنو النشطاء الإسلاميون إلى إعادة دولة الخلافة كسابق عهدها.

وبدءا من عام ١٩٢٦، سعى النشطاء الإسلاميون إلى توحيد صفوف المسلمين تحت راية خلافة بديلة: من خلال إرساء الرابطات وعقد المؤتمرات. فإذا كان العالم الإسلامى بالغ التشظى لأن يوحد تحت قيادة زعيم فرد، فلا بأس – إذاً – فى أن يشكل تجمع ممثل نوعا من هيكل مظلى ينتظم الشتات ويربط الأصرة. ففى عام

١٩٤٩، كان كل من سعيد رمضان وأمين الحسيني، مفتي القدس، رأسي حربة لجهود رمت إلى إرساء هيكل كهذا، لينجحا – في عام ١٩٥١ – في عقد اجتماع لمؤتمر العالم الإسلامي ... حيث ترأس الحسيني الاجتماع، وذلك في العاصمة الباكستانية "كراتشي"، فيما انتخب رمضان كأحد ثلاثي سكرتارية الاجتماع، فما كان منه إلا أن عمد – من فوره – إلى مهاجمة حكومة تركيا العلمانية. كذا، فقد نشط رمضان مع الحسيني في منظمة المؤتمر الإسلامي.

إن الهدف الرئيسي الذي عمد سعيد رمضان إلى تحقيقه خلال تلك الاجتماعات قد تمثل في محاربة الشيوعية ... فعلى الرغم من أن البلدان الغربية كان ينظر إليها على أنها فاسدة ومتداعية الأخلاق، إلا أن البلدان الشيوعية كانت قد فرضت حظرا شديدا على الدين، حيث صادرت أي نشاط ديني وعمدت إلى تقييده بشدة ... الأمر الذي جعل تلك البلدان تفوق البلدان الغربية سوءا، ومن ثم أضحت هدف الإسلامويين الأول. هذا، وقد كان أمين الحسيني يجاهر بمعارضته للشيوعية. فوفقا لتقرير لوحدة الخدمات الاستراتيجية بوزارة الدفاع الأمريكية في عام ١٩٤٦، فإن "الحسيني كان قد بعث برسائل إلى أتباعه مذكرا إياهم بأن مبادئ الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الدين الإسلامي كما وردت في القرآن".

هذا، وقد تكرر ذلك المشهد في مراقبات وكالة الاستخبارات المركزية لأمين الحسيني، والذي عرف بأنه معاد للشيوعية ومناهض لها، ومن ثم كونه متوافقا والسياسة الأمريكية المناهضة للشيوعية ... إلا أن تاريخه "النازي" قد حال دون أن يصبح حليفا مقبولا للأمريكيين. أما سعيد رمضان فكان شأنا آخر.

كانت الجولة الأولى التي جمعت المسئولين الأمريكيين بسعيد رمضان في صيف ١٩٥٣، إذ تلقى "البيت الأبيض" طلباً عاجلاً مفاده "قدوم إسلاميين بارزين إلى

جامعة برنستون لعقد مؤتمر إسلامى ... فهل للرئيس الأمريكى أن يلتقيهم؟" وفى البدء، فقد بدا تعذر حدوث لقاء كهذا نظرا لتغيب الرئيس الأمريكى "أيزنهاور" عن نيو جيرسى. إلا أن "أبوت ووشبورن" – نائب مدير الوكالة الأمريكية للمعلومات ومسئول الاتصال بالبيت الأبيض – كان قد أورد الأولوية التى يوليها "أيزنهاور" للدين فى حياته الخاصة، وكذا فى استراتيجيته الجيوسياسية. أما المناقشات الباكرة حول توظيف الدين على نحو أكثر فاعلية فى السياسة الدولية، فكانت قد جرت بالفعل، إذ كان "إدوارد ليللى" قد أصدر للتو مذكرته ذات النفوذ الطاغى والمعنونة "العامل الدينى"[٧٨]. ورغما عن كون الوثائق لم تبرز بجلاء ما إذا كان "ووشبورن" قد أطلع على مذكرة "العامل الدينى" أم لا، إلا أن الشعور العام كان واضحا جليا: يجب على الولايات المتحدة الأمريكية اقتناص فرصة كتلك.

لذا، فقد بعث "ووشبورن" بمذكره إلى "تشارلز دوغلاس جاكسون"[٧٩] – مايسترو الحرب السيكولوجية التى تبناها "أيزنهاور" – أبلغه فيها أن المؤتمر ممول من قبل الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، وجامعة برنستون، ومكتبة الكونغرس – أو كما شبهها "بحيلة رباعية الأبعاد للهيمنة على العالم الإسلامى". أما النتيجة المرجوة، وفقا لما كتبه "ووشبورن"، فكانت "أن تترك القوة الأخلاقية والروحانية لأمريكا لدى المسلمين (الحضور) انطباعا إيجابيا ناجزا".

أما "البيت الأبيض" فكان مترددا، وأما "ووشبورن" فقد عمد إلى محاولة أخيرة ... إذ أورد أن "أيزنهاور" كان مؤمنا بضرورة أن تبرز الولايات المتحدة الأمريكية تفوقها الروحانى على الاتحاد السوفييتى. وفى مذكرته إلى "تشارلز جاكسون"، أورد "ووشبورن" أن "أولئك الذين أزمعوا عقد مؤتمر إسلامى يمكنهم ترك انطباع هائل بعيد المدى على التفكير الإسلامى، بل قد يفوق تأثيرهم طويل المدى تأثير

القادة السياسيين فى بلادهم. وهنا وافق "البيت الأبيض" على انعقاد "المؤتمر الإسلامى"، وبعدها بثمانية أيام ... أخذت الدعوات إلى حضور المؤتمر تترى. كذا، فقد دون موعد اجتماع الرئيس "أيزنهاور" بأعضاء المؤتمر، فى روزنامة أعماله: الثالث والعشرون من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣ - الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا. كذا، فقد تم تدوين اسم "سعيد رمضان" ... مندوب جماعة "الإخوان المسلمين".

وكما أوضح مسئولو "أيزنهاور"، فقد أريد بالاجتماع أن يكون تتمة للأهداف السياسية لمؤتمر "برنستون". هذا، ولم يكن جميع حضور المؤتمر من الباحثين ... لذا، فلم يقدم هؤلاء أبحاثا أو أوراق عمل، إذ كان الهدف الرئيسى للمؤتمر إظهار احتفاء الولايات المتحدة الأمريكية بالمثقفين الإسلاميين. ووفقا لمذكرة سرية أرسلت إلى وزير خارجية "أيزنهاور" ... "جون فوستر دالاس": "فقد بدا المؤتمر - ظاهرياً - كممارسة ثقافية وتعليمية بحت، وهو الانطباع الذى أريد بالفعل أن يحققه المؤتمر. كذا، فقد روجت وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية - المؤتمر، وفقاً لهذا المنحى عن طريق توفير التمويل اللازم له، وكذا أية مساعدات أخرى ... وذلك لإيمان الولايات المتحدة بأن ذلك النهج السيكولوجى يعد إسهاما هاما لتحقيق الأهداف السياسية الأمريكية فى العالم الإسلامى، سواء فى الأجل القصير أو فى الأجل الطويل".

هذا، وقد أرفق بالمذكرة المشار إليها تحليل عن المؤتمر الوشيك. أما الأهداف، فكانت مهمتها الترويج للنهضة الإسلامية، حيث تعد جماعة "الإخوان المسلمين" الجماعة الأكثر نفوذا ضمن عناصر تلك النهضة. والأمر المثير هنا أن التحليل قد ذهب إلى خطورة بعض الحضور المحتمل وجودهم فى المؤتمر - فوفقاً لمقتضيات القانون، فإن وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية المخولة

بالترويج للتبادل الثقافي. أما جماعة "الإخوان المسلمين" ... ذلك الكيان السياسى الصريح السافر ... فلا تدخل ضمن مفهوم "الفعاليات الثقافية"، الأمر الذى جعل من الصعب أن تقوم وكالة المعلومات الدولية بتمويل مشاركة سعيد رمضان وزعماء سياسيين آخرين فى المؤتمر. ونظرا لأن برنامج التبادل الثقافى لا يحق له تمويل حضور أفراد بعينهم للمؤتمر، إذ سيكون حضور كهذا غير مرغوب فيه، لذا فمن المأمول أن تضطلع جهات أخرى بجانب صغير من المساعدة التمويلية. وهنا تقدمت جهات أخرى لتقديم العون المالى، من أمثال شركة "أرامكو" للنفط – والتى تكفلت بنفقات الانتقال، وكذا فقد شاركت وكالة المعلومات الدولية حيث تحملت نفقات انتقال أستاذين جامعيين بجامعة برنستون إلى الشرق الأوسط لدعوة المرشحين للحضور شخصيا.

وفى تموز/ يوليو ١٩٥٣، حين تم اختيار معظم المشاركين فى المؤتمر، خوطبت السفارة الأمريكية فى القاهرة حول ما إذا كان سعيد رمضان بمقدوره حضور ذلك المؤتمر، إذ كان رمضان راغبا فى زيارة بعض التجمعات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا، وقد بعثت السفارة بالطلب إلى واشنطن مرفقا به نسخة من سيرته الذاتية ومسيرته الوظيفية – بعد تهذيبهما... ولتوصى السفارة بحضور رمضان.

وعلى مدار عشرة أيام هى عمر المؤتمر، قدم المتحدثون أبحاثا تناولت التعليم والشباب والفنون والإصلاح الاجتماعى. فإذا ما قارنا المؤتمر بمؤتمرات اليوم، لألفيناه ممتداً فسيحاً ذا وتيرة غير عجلى، إذ كان اليوم الواحد بأكمله يخصص لفعاليتين أو ثلاث، بما أتاح وقتاً كبيراً لإجراء مناقشات مطولة عميقة، فضلا عن جلسات سمر وتعارف ضمت المشاركين فى المؤتمر الذى انتقلت أعماله من نيوجيرسى إلى العاصمة واشنطن لينتهى بلقاء الرئيس "أيزنهاور" المشاركين، ومن

بينهم سعيد رمضان. أما الصور التى التقطت لفعاليات المؤتمر فكانت تجسيدا لخطوات ذلك العصر المترددة بشأن توظيف قوة الإسلام. هذا، وقد تعاقبت الاجتماعات على نحو سلس، واعتبر المؤتمر محرزا جزيل نجاح وسداد.

إلا أن الشواهد قد أظهرت أن رمضان لن يكون حليفا سلسا لين العريكة. فوفقا لتحليل لوكالة الاستخبارات المركزية أجرته عقب انقضاء المؤتمر، ظهر رمضان كمشاغب ومحرض سياسى. وقد أورد التحليل أن "رمضان قد دعى تحت إلحاح من السفارة المصرية فى الولايات المتحدة ... ذلك الرجل الذى مثل العنصر الأكثر صعوبة فى التعامل خلال وقائع المؤتمر نظرا لاهتمامه بالضغوط السياسية لا المشكلات الثقافية". كذا، فوفقا للتحليل – نأى رمضان بنفسه عن الخوض فى ثرثرات جانبية وابتعد عن الزج بنفسه فى سفاسف الأمور. فخلال تجمع بإحدى أمسيات المؤتمر، سئل رمضان ما إذا كان يتوجب عدم تشجيع الشبيبة المصرية على الانخراط فى العمل الاجتماعى، فكان رده "أن الأمر الوحيد الذى يلقى اهتماما كبيرا لدى تلك الشبيبة ينحصر فى طرد المحتل البريطانى عن البلاد". واستأنف محرر التحليل – الذى جاء فى صورة تقرير – بتقييمه الشخصى لسعيد رمضان، حيث قال: " لقد شعرت أن رمضان يتسم برجعية سياسية، حيث بدا أقرب ما يكون لأن ينعت بكونه "كتائبيا" أو "فصائليا" ... أو لعله "فاشستى" التوجه. ولم يكن رمضان يبدو إسلاميا رجعيا بمثل ما تعلق الأمر بالشيوخ الثلاثة الذين كانوا حضورا بالمؤتمر. أجل ... إن رمضان قد بدا فاشستيا يهتم بحشد الجماهير والأفراد بغية استجلاب القوة والنفوذ، كذا فلم يكن رمضان يبرز أية أفكار – أياً ما كانت – عدا تلك الخاصة بجماعة "الإخوان المسلمين".

إلا أن رمضان قد واصل الظهور فى المحافل الدبلوماسية الأمريكية ... ففى عام ١٩٥٦ التقى عددا من المسئولين الأمريكيين بالعاصمة المغربية، "الرباط" مشدداً

على المطالبة بطرد اليهود من فلسطين. إلا أن توجهات كتلك كانت حائلاً دون إرساء تحالف رسمي فيما بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن رغبة الطرفين المشتركة في مجابهة الشيوعية كانت واضحة جلية. لذا، قطع رمضان وزعماء آخرون بمنظمة المؤتمر الإسلامي عهدا على أنفسهم، عام ١٩٥٦، بشن حرب ضروس مناهضة للشيوعية، مشيرين إلى أن الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الإسلام ... على الرغم من تسليم رمضان بأنها ستكون تجارة بائرة ... إذ إن حرباً كتلك ستكون عصية على الترويج في إقليم الشرق الأوسط، حيث يؤمن أبناؤه بأن الشيوعية حركة معادية للغرب، ذلك الغرب الذي يعزو العرب إليه مسئولية إنشاء الكيان الإسرائيلي. كذا، فقد كانت هناك مشاكل وصعوبات واجهت رمضان على الصعيد الشخصي ... إذ اتخذ جمال عبد الناصر - عام ١٩٥٤ - إجراءات صارمة ضد جماعة "الإخوان المسلمين" في أعقاب محاولة فاشلة استهدفت اغتياله ... محاولة تم الزعم بأنها من تخطيط عناصر إخوانية. لذا، ارتحل رمضان إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى سوريا، فباكستان، فالأردن. هذا، وقد عمدت القاهرة إلى تجريد رمضان وحفنة من القيادات الإخوانية من حق المواطنة المصرية، ورمتهم بالخيانة العظمى. ونظرا لكون مصر، آنذاك، أقوى دول الإقليم نفوذا، فلم ترغب معظم بلدان العالم في معاداتها. أما رمضان، فكان عليه أن يظل مرتحلا. هذا، وقد قامت المملكة الأردنية الهامشية، ربما عرفانا بجهود رمضان عام ١٩٤٨، بمنحه جواز سفر دبلوماسي، بل وأرسلته سفيرا شرفيا لها بألمانيا الغربية ... ثم، ربما بدافع من حرص أكاديمي أصيل، أو لعله ستار لأنشطة أخرى ... ألفى البروفيسور "كيغل" الرجل لدى الباب، على نحو ما ورد في مفتتح الفصل الحالي.

بعد انقضاء خمسة أشهر على قبول "كيغل" رمضان تلميذا لديه ... تلقى

البروفيسور خطابا منه بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٦ ... خطابا ورد من دمشق كانت تعلوه كلمات ثلاث تصدرته: "مؤتمر العالم الإسلامي". وفى هذا الخطاب، الذى خطه رمضان بالإنكليزية، كتب يقول: "عزيزى البروفيسور كيغل، إننى بحاجة إلى المساعدة ... إذ لم أجد - إلى الآن - مادة جيدة تصلح للتناول بالأطروحة. إن ثمة نزعة جديدة نحو الشريعة الإسلامية تجد طريقها فى البلدان الإسلامية المستقلة حديثا ... وتأسيسا على ذلك، فما رأيكم فى أطروحة تتناول، بالمقارنة، جهود تطبيق تلك الشريعة؟ والأمر معروض على سيادتكم للبت فيه بالإيجاب أو السلب".

أما "كيغل" فلم يكن واثقا كيف يجيب تلميذه. فالرجل البالغ من العمر - آنذاك - أربعة وأربعين عاما كان، تحقيقا، واحدا من أبرز العقليات القانونية فى ألمانيا الغربية نظرا لأبحاثه ودراساته عن القانون المدنى. ولكونه أكاديميا صارما، كان "كيغل" يشجع تلامذته على القيام بأبحاث تتناول مواضيع تقليدية، إذ رغب فى أن يقوموا بالبحث فى سجلات المحاكم، أو أى ضرب آخر من العمل "الإمبريقى"، ثم تعضيد أفكارهم بحواش مرفقة. إلا أن رمضان كان قد اقترح أمرا مغايرا بالكلية: دليل لتطبيق الشريعة الإسلامية. فإذا كان لرمضان أن يكون أكاديميا، فيجب أن تخضع أطروحته لتمحيص غاية فى الدقة. أما "كيغل"، فقد نظر إلى اهتمامات تلميذه الشاب على أنها لا تعدو كونها "هواية" لا ترقى إلى مصاف البحث الأكاديمى الرصين ... بيد أنه كان معجبا بما اقترحه رمضان، لذا فقد أخبره بموافقته على موضوع الأطروحة.

إلا أن رمضان، وفى نهايات عام ١٩٥٦، كان قد ارتحل ثانية إلى الشرق الأوسط - حيث أبرق لكيغل، فى الثالث عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر، يقول: "عشية مغادرتى أوروبا، شعرت بضرورة أن أعبر لسيادتكم عن امتنانى الجزيل

لكم. إننى لن أنسى ما حييت استقبالكم لى بحفاوة وكرم، كذا فلن أنسى تلك الأوقات الرائعة التى أمضيتها فى كولونيا". هذا، وقد واصل رمضان إعداد أطروحته مرتحلا من بلد إلى آخر ... حيث عمل أمينا لمؤتمر العالم الإسلامى. وفى الحادى والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٥٨، كتب رمضان لأستاذه قائلا إن الأجواء العصيبة للموقف المتداعى فى دمشق قد أجبره على إرسال أسرته إلى القدس. أما فى الثامن والعشرين من آب/ أغسطس من العام ذاته، فقد كتب يخبر أستاذه بتوجهه إلى الأراضى الحجازية خلال موسم الحج للقاء بعض المصريين، وهو ما أيد إيمان الاستخبارات المصرية بأن نفرا من الإخوان المسلمين بالمنفى قد التقوا خلال موسم الحج هذا، للتباحث حول استراتيجية يمكنهم تبنيها[٨٠].

وفى آب/ أغسطس المذكور، قرر سعيد رمضان العودة إلى جنيف. هذا، وقد بدا – آنذاك – أن المسئولين السويسريين لم ينتبهوا إلى كونه سيستقر هناك على نحو نهائى ... إلا أنهم قد تباحثوا – بعدها بسنوات قلائل – بشأن حقيقة كونه متخفيا فى جنيف ليخلصوا إلى أن الأمر يخالف القانون ... بيد أن قرارهم كان تركه يحيا بسويسرا نظرا لميوله القوية لمناهضة الشيوعية. أما رمضان، فقد أوضح – لاحقاً – أنه انتقل للعيش هناك نظرا لحاجة أحد أبنائه لتلقى خدمات علاجية بعينها.

وفيما كان عام ١٩٥٨ يمضى إلى أفول، كان رمضان قد فرغ من أطروحته. وفى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام، منحه "كيغل" درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ... حيث كتب تقريظا لتلميذه قال فيه: "إن واضع تلك الأطروحة لرجل جد قدير" ... ناعتا أطروحة رمضان بكونها عملا فاق أية أعمال سبق وأن أشرف عليها على امتداد الشرقين الأدنى والأوسط. إلا أن "كيغل" قد كتب أيضا فى تقييمه للأطروحة ... ذلك التقييم الوارد فى تقرير من صفحتين

اثنتين – أنها أطروحة غير اعتيادية، فهى ذات نزعة ثيولوجية ومنحى سياسى بأكثر من كونها أطروحة قانونية ... إذ هى محاولة لجعل الشريعة الإسلامية تجد تطبيقا لها فى عالمنا المعاش.

وفى لقاء جمعنى بالبروفيسور "كيغل" فى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ بكولونيا الألمانية، قال البروفيسور: "إن الأطروحة كانت جيدة، إذ كان بناؤها الفكرى بديعا" ... فى تذكره لأحداث مضى عليها نصف قرن من الزمان، إلا قليلا.

إلا أن بعضاً من تساؤلات وشكوك قد حامت بخلد البروفيسور بشأن تلميذه ... سعيد رمضان. فحين سألته عنه، جاءت الإجابة مقتضبة موجزة: "يمكننى أن أصف رمضان بالذكاء، إلا أنه كان ذا هوس وجموح".

لقد كان رمضان يسعى لإرساء طوياوية دينية ... ضرب من مدينة فاضلة تتدثر بتعاليم الإسلام. ولم يكن "كيغل" يضمر قليلا أو كثيرا لفئة "الطوياويين"، إلا أن الطبيعة الاستبعادية الاستعلائية للفكرة لم تكن لتروق له ... تلك الفكرة التى مؤداها وجود دين واحد يسمو فوق كل ما عداه ... دين يتصدر المشهد بلا منازع. ومن المؤكد أن "كيغل" كان يؤمن بأن ذلك المنحى لهو دليل على التعصب وأمارة من أمارات عدم التسامح. لقد كان "كيغل"، المولود فى السادس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩١٢، أكاديميا ناشئا يرقى أولى درجات السلم العلمى خلال سنى ما قبل الحرب الكونية الثانية ... وكان أستاذه الباحث والمنظر القانونى اليهودى الشهير، "ارنست رابل" – الذى هاجر عام ١٩٣٩ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قام "النازى" بجعل الحياة الأكاديمية ضربا من المستحيل لليهود. وهنا يتذكر "كيغل" أستاذه "رابل" قائلا: "إن رابل قد بقى طيلة حياتى مثلى الأعلى

وقدوتي التي أحذو حذوها وأتلمس خطاها. لقد كان "رابل" ضحية من ضحايا الهوس البغيض، ذلك الأمر الذي لا أنساه العمر كله. أجل ... إنني أدرك ذاك الضرب من الهوس الذي أنفر منه على الدوام".

إلا أنه رغما عن مرارات قد استشعرها "كيغل"، وشكوك وهواجس أصابته ... فقد ظل هو وتلميذه "سعيد رمضان" صديقين، إذ حوت أوراق "كيغل"، الذي توفي في السادس عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ – العديد من خطابات مرسلة إليه بخط يد تلميذه ... خطابات أرسلها رمضان خلال تطوافه ببلدان العالم الإسلامي. كذا، فقد كتب "كيغل" توطئة لأطروحة رمضان – "التشريع الإسلامي ... آفاقه وموازين عدالته" – والتي نشرت في عام ١٩٦١ ... تلك الأطروحة التي كانت الأوفر شهرة والأوسع ذيوعا من بين جميع ما أشرف عليه "كيغل" من أطروحات. واليوم، تعد الأطروحة ذلك النمط الشائع من الدراسات التي يصطبغ بها المشهد "الإسلاموي". والأطروحة، التي كتبها سعيد رمضان بالإنكليزية، قد ترجمت إلى لغات عدة – حيث تشهد رواجا بين أروقة المساجد والمراكز الثقافية على امتداد أوروبا بأسرها، وفي أي موضع قيض له أن يُخترق من قبل أيديولوجية "الجماعة" ... جماعة "الإخوان المسلمين".

إن كنيسة القديس بولس للروم الكاثوليك القريبة من المحطة الرئيسية لسكك حديد ميونيخ لتقف شاهدة على عصر انصرم ... كانت فيه أوروبا أكثر خشيه لله. وقد ضمت الكنيسة – التي بنيت في الفترة ما بين عامي ١٨٩٢ و١٩٠٦ – ستة آلاف عضو ينتظمهم عنصران فاعلان، هما السخاء والطموح ... أولئك الأعضاء الذين عهدوا بمهمة تشييد كنيستهم إلى مهندس نمساوي يدعى "غيورغ يوزيف فون هاوبرريسر" (١٨٤١–١٩٢٢)، وهو المهندس الذي شيد مبنى بلدية ميونيخ وفق الطراز القوطي الحديث، وذلك في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٨٦٧ و١٩٠٨ . أما

الأعضاء، فقد طلبوا إلى "هاوبرريسر" بناء كنيسة تكون الأطول فى المدينة أملا منهم فى أن تعلو كاتدرائية السيدة العذراء للروم الكاثوليك – ذلك المعلم القروسطى الشهير الذى يقع وسط ميدان "مارين بلاتس"[٨١]. هذا، وقد عكست كنيسة القديس بولس مظاهر الثقة والفخار التى باتت تسم ألمانيا الإمبريالية آنذاك. أما ارتفاع الكنيسة، فلم يزد عن ٩٦ مترا وفقا للتعاليم الأسقفية بما جعل كاتدرائية السيدة العذراء تحافظ على تفردها كأعلى بناية بالمدينة. وفى أثناء الحرب الكونية الثانية، قصفت الكنيسة أثناء الغارات الجوية التى شنتها قوات الحلفاء على المدينة. ونظرا لضخامة جدرانها الحجرية، صمدت تلك الجدران فى وجه موجات القصف، إلا أن القنابل قد اخترقت سقف الكنيسة، ودمرت محتوياتها الداخلية. وبحلول عام ١٩٥٨، كان قد تم إعادة بناء الكنيسة دونما كبير إسراف، بل وعلى نحو يثير الذكريات المؤلمة. هذا، وقد تم إحلال سقف الكنيسة ونوافذها، إلا أن إدارة الكنيسة قد ركنت إلى عدم إعادة ترميم الزخارف المنمقة، والتى كانت تزدان بها الكنيسة يوماً ما... إذ تم تزويدها – فى المقابل – بتماثيل قد خلت من زينة، وبزجاج نوافذ غير ملون، فضلا عن قرميد غير مصقول. لقد باتت كنيسة القديس بولس شاهدا على عنفوان الأيديولوجيا التدميرى ... ذلك الذى ترك البلاد، وقد ضجرت من إيمان وتشككت فى يقين.

لقد كانت كنيسة القديس بولس الوجهة التى قصدها أكثر من خمسين رجلاً فى اليوم التالى للكريسماس عام ١٩٥٨ . لقد بلغ الرجال مقصدهم عن طريق العربات، وكذا مترو الأنفاق رغما عن عاصفة ثلجية لفت المدينة ... مجتازين أراضى كانت ما تزال خاوية على عروشها آنذاك، وأطلال مبان شوهتها معارك الحرب الكونية الثانية. لقد اجتمع هؤلاء الرجال لا لتمجيد المسيح، بل للمشاركة فى جهود "غرهارد فون منده" الرامية إلى توحيد صفوف مسلمى ألمانيا لبناء مسجد

لهم ... حيث حظيت "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين"، التى أوجدها "نور الدين نمنقانى" بقبول واسع وازدادت شعبيتها بعد أن عمد "فون منده" إلى تنحية جماعة "إبراهيم كوجا أوغلو" جانبا. إذا ... فقد كانت "إدارة نمنقانى الدينية" تزعم كونها تمثل مسلمى ألمانيا كافة. أما دعوات الحضور، والتى تم طباعتها بالألمانية والتركية (بأحرف عربية)، فقد دعت ليس فقط إلى حضور "الجنود السابقين" فحسب، بل "الإخوة الآخرين من ألمان وباكستانيين وإيرانيين وعرب وأتراك ... ممن يحيون بميونيخ، إذ إنه لزاما على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله تلبية نداء خالقه بالحضور أو بإبلاغ غيره من المسلمين، فالحاضر يبلغ الغائب". ولم تكن النبرة كتلك التى وسمت الكنيسة التى خضعت للترميم من اعتدال ورصانة ... بل كانت، بالمقابل، نبرة رؤيوية ذات عذاب ونذر" ... فالعالم قد يفنى بين عشية وضحاها، لذا فيجب ألا نحيا فى دنيانا معصوبى الأعين. أجل ... لقد طال الرقاد وحان الأوان لننهض من رقدتنا تلك كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا".

هذا، وقد سبق الاجتماع جلسة مصغرة بتاريخ الثانى والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... جلسة ضمت أعضاء "إدارة نمنقانى الدينية" الذين قرروا إرساء ما عرف "بلجنة بناء المسجد" "der "Moscheebau Kommission، برئاسة "نور الدين نمنقانى"، فيما كان الموقر "سعيد شامل" الداغستانى رئيسا شرفيا لها. تلا ذلك بأربعة أيام التقاء الجمع تارة أخرى بحضور بعض طلاب ومسلمين أخر، حيث كان "سعيد رمضان" ضيف الشرف. هذا، ويتذكر "فضل يزدانى" ذلك اليوم جيدا. فخلال لقائين جمعانى به فى ميونيخ فى الثامن والعشرين من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٥، والثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... أورد "يزدانى" والذى كان لا يزال، آنذاك، طالبا بكلية الطب فى العشرين من عمره – " أن الغرفة كانت ممتلئة عن آخرها، وكان ذلك شعوراً ماتعاً للغاية ...

لقد شعرنا بأننا ننهض بعمل مثالى جليل ... بناء بيت لله – مسجد كان لزاما أن يصير مسجدا لمسلمى ألمانيا كافة. ألا إن السعادة والحماسة قد غمرتا الحضور كله لوجود الدكتور سعيد رمضان بين ظهرانينا ... لقد كان شخصية جليلة مهيبة، ذلك الفاضل الذى ترأس مؤتمر العالم الإسلامى. لقد ذاع صيت الرجل وطبقت شهرته الآفاق، وها هو اليوم يشاركنا جمعنا مادا يد العون لإرساء لبناء المسجد المنشود".

أما سعيد رمضان فقد أدلى دلوه فى تلك المعمعة باستعراض "عضلاته" المالية ... إذ كانت حصيلة ما جمع الحضور من عطايا وهبات قد بلغت فى ذلك اليوم ١١٢٥ مارك ألمانى، تبرع رمضان – وحده – بألف منها. هذا، وقد اختير رمضان عضوا فخريا "بلجنة بناء المسجد"، وكان قد دعى لحضور الاجتماع من قبل طالب سورى شاب يدعى "على غالب محمود همت" – عضو جماعة "الإخوان المسلمين" فى سوريا.

"لقد عمد همت إلى دعوة رمضان لأخذ زمام القيادة" ... هذا ما ذكره لى عبيد الله مجددى، الذى التقيته فى ألمانيا فى الأول من شباط/ فبراير ٢٠٠٥ . وعبيد الله هو ابن الزعيم الأفغانى الشهير "صبغة الله مجددى". لقد كان عبيد الله – والذى كان يدرس الطب آنذاك – من ضمن حضور الاجتماع المذكور، كذا فقد كان قريبا من سعيد رمضان لسنوات قلائل تلته ... إذ كان سكرتيره الشخصى. هذا، ويذكر مجددى أن "الهدف كان أن تتولى رئاسة لجنة بناء المسجد شخصية شهيرة".

فوفق ما استدعاه مجددى، فإن رمضان قد ذهب إلى القول بأنه تواق لبسط نفوذه على امتداد أوروبا. أجل ... لقد كانت جنيف هى قاعدته، ولكن ميونيخ، والتى

تبعد مسيرة يوم تقطعه العربة إلى الشمال الشرقي، لتعد قاعدة مثلى للانطلاق. لقد كان مجددى معجباً برمضان، بيد أنه – وعلى نحو ارتجاعى، أو ربما على طول الخط – كان يعانى وخز الضمير لجعل شخصية سياسية كسعيد رمضان تصعد إلى صدارة مشهد إدارة لجنة بناء المسجد.

واستطرد مجددى قائلا: "إنه كان ضد اختياره للاضطلاع بالرئاسة، ولم يكن ضد شخص سعيد رمضان، بيد أن رمضان هو عضو بجماعة الإخوان المسلمين، وأحد زعمائها، كذا فهو رمز سياسى – فضلاً عن أنه رمز دينى أيضا. لقد كان الرأى عندى، آنذاك، أنه ليس من الحصافة أن نوصم القلب بأنه مركز للإخوان المسلمين ... إنه ليتعين أن نعمل من أجل الإسلام، لا فى سبيل جماعة أو أخرى".

بيد أن سعيد رمضان كان شخصية كاريزماتية آسرة ... إذ كان الطلبة – أولئك الانطباعيون الذين تراوحت أعمارهم ما بين التاسعة عشرة والعشرين – يعتبرونه نجما ساطعا ... نجما يقود نهضة دينهم ذى المجد التليد والشرف الأثيل. لقد عمد رمضان إلى الوقوف فى وجه "كولونيالى" هنا و"ديكتاتور" هناك ... كذا، فقد قام هؤلاء الطلبة بدعمه كبطل يمثلهم.

أما محمد عبد الكريم (قريم)[٨٢]، الألمانى الذى اعتنق الإسلام ليصبح ناشطا إسلاميا عتيدا، فقد ذكر لى، حين التقيته فى الحادى والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ بهامبورغ، أن "الطلبة جميعهم كانوا ذوى دراية واسعة وإطلاع غزير بالأمور الدينية وقضايا الإسلام، وخاصة تلك المرتبطة بجماعة "الإخوان المسلمين" ... لقد استوعبوا دروس حسن البنا استيعابا شاملا".

لقد أدرك سعيد رمضان أن عليه القيام بزيارة واجبة لفون منده اعترافا بفضله، إلا أنه كان لديه أمر آخر بات يشغله. لذا، فقد أناب عبيد الله مجددى للقيام بتلك

الزيارة المزمعة. وفى مقابلتى بمجددى، تذكر الرجل تلك الأحداث ليقول ضاحكا: "عقب الاجتماع، ذهبت إلى فون منده فى دوسلدورف، وأخبرته عن الاجتماع ووقائعه ... إلا أنه قد تبدى أن كان يعلم الأمر برمته". إن مجددى لم يكن يدرك - آنذاك - أن نور الدين نمنقانى كان "رجل" فون منده الذى كان يتابع الأحداث من كثب. إلا أن رمضان كان لغزا بذاته ... إذ سرعان ما شرع "فون منده" فى تحرى الأمر ... هل كان حليفا أم مناوئا؟ كذا، فسرعان ما كانت بيانات جديدة قد أخذت طريقها إلى ملف بطاقات "فون منده" الأنيقة: "سعيد رمضان، ٣٦ عاما، أحد قادة جماعة الإخوان المسلمين ... يقود سيارة كاديلاك أهدته إياها حكومة المملكة العربية السعودية".

obeikandl.com